الفصل الثاني
آيات النبوة وآيات العالم الغيبي والآيات العلمية

أ ــ النبوة :

تشغل قصص القرآن الكريم حيزا ملحوظا في كتاب الله تعالى ، وقد سيقت للعبرة والوعظ ، وتضمنت ، فيما تضمنت ، معجزات سماوية أمد الله بها رسله ، وتضمنت ، فيما تضمنت كذلك جوانب من التاريخ الإنساني لا تقبل الجدل ؛ لأنها تستند إلى الوحي الصادق برغم أنف بعض تلاميذ الفكر الواحد الملحد الذين حاولوا أن يثيروا شبهات حول صدق القرآن الكريم في المجال التاريخي [(١)] .

وانطلاقا مما سبق سنحاول أن نلقي الأضواء عما أداره سيد قطب من حديث عن النبوة ـ وهي مبحث من المباحث العقدية ذات الوزن الثقيل ــ وما يتعلق بها من وحي وعصمة ومعجزة من خلال الآيات الدالة على ذلك .

النبوة اصطفاء لا غير :

يتصدى سيد قطب للكلام عن النبوة والأنبياء ومشيئة الله تعالى في اصطفاء بعض النماذج من البشر لها ، وذلك من خلال ما توحي به الآيات الكريمات من دلالات .

لأجل ذلك كانت رسالة السماء تنزل على من يشاء الله تعالى من عباده حسب مشيئته المطلقة ، وحين تخلى أهل الكتاب عن الأمانة التي أنيطت بهم ، وخانوا العهد

---

(١) من هؤلاء طه حسين في كتابه الأدب الجاهلي ومحمد خلف الله في كتابه الفن القصصي في القرآن الكريم ، ومعروف أن الأدب الجاهلي قد رد عليه أكثر من واحد ، وأن الأدب القصصي كذلك رد عليه غير واحد أيضا من بينهم الشهيد ~ في مجلة «السواري» انظر : صبري «مصطفى» موقف العقل والعلم ج١ ص ٣٢٤ .

الذي كلفوا برعايته اقتضت حكمة الله ان يسلم أمة الإسلام القيادة وأن يصطفي سيدنا محمدا ﷺ رسولا للعالمين ، فهو الذي يختص برحمته من يشاء .

ومهما حاول الإنسان أن يبحث عن أسباب هذا الاصطفاء فإنه لن يستطيع أن يحرز النتيجة ؛ لأن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، ولهذا يقول من سورة الأنعام : ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

ويحاول الأستاذ سيد أن يشرح سبب اصطفاء الله تعالى لبعض البشر رسلا فيقول معللا :

«ففي الإنسان إذا طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله والله أعلم حيث يجعل رسالاته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليهم بما تنطوي عليه كل خلية وكل بنية وكل مخلوق وقادر على أن يطوع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها أو أوتيها »[(١)] .

والنبوة لا تجعل من الرسول إنسانا مغايرا لأخيه الإنسان في إنسانيته قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧، ٨] .

ومن خصائص النبوة أنها تفرض على الرسول[(٢)] ألا يتخطى في تصرفاته دائرته وهو يتعامل مع الناس لكونه عبدا من عباد الله يدين لله بالعبودية كما يدين له بها أي

---

(١) المجلد ٤ ، ص ٣٨٢ .

(٢) هناك فرق بين النبي والرسول ، فمن أنبأه الله خبر السماء وأمره أن يبلغه غيره فهو نبي رسول وإن لم يأمره إبلاغه غيره فهو نبي وليس رسولا . فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول . انظر ذلك : بتفصيل في شرح العقيدة الطحاوية خرج أحاديثها المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ص١٦٧ ، ط٤ .

فرد من أفراد الجنس البشري قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠] .

ومن خلال هاتين الآيتين يحدد سيد قطب سمة النبي بقوله :

«إن النبي يوقن أنه عبد وأن الله وحده هو الرب الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم فما يمكن أن يدعي لنفسه الألوهية » (١) .

العصمة :

إن سيد قطب ~ لا يتساهل في قضية عصمة الرسل فما أن تعرض شبهة من الشبهات تحاول مس العصمة إلا وغض الطرف عنها أو فندها ، وقد مر بنا رفضه خبر الآحاد لهذا السبب ، لأجل أن يسد باب الشك في وجه المشككين وسيأتي حديث ذلك مستوفي في الخاتمة .

ففي قصة آدم عليه السلام تصوير للإنسان الخطاء ، إذ يخالف آدم ربه فيأكل من الشجرة : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة:٣٦] ، نلحظ أن سيدا لا يتحدث بتاتا عن خطأ آدم والعصمة النبوية بل يجتزئ بأن يشرح القصة بقوله :

«لقد أبيحت لهما ثمار الجنة إلا شجرة واحدة ربما كانت ترمز للمحظور الذي لابد منه في حياة الأرض ، فبغير محظور لا تنبت الإرادة ، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق » (٢) .

---

(١) المجلد ١ ، ص ٦٢١ .

(٢) السابق ، ص ٧١ .

وهكذا كلما تكررت القصة في القرآن الكريم بسبب عرض خاص في جو خاص [١] ولا يطعن في العصمة كما قد يطعن فيها من لا يعرف حقيقة العقيدة ؛ إذ هو يرى أن ما صدر ــ كما رأينا ــ من آدم عليه السلام إن هو إلا تجربة أولى للإنسان الأول تبين خصائصه كإنسان يخطئ وينسى ويعرف زلته ويندم ويطلب العون من خالقه ولا يصر على المعصية كما يصر الشيطان .

ونلحظ في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز أن سيد قطب قد وقف موقفا جد متزن ، إذ لم يجرد يوسف من خصائصه البشرية لكنه حافظ على العصمة النبوية من أن تمس أو يمتد إليها التجريح ، وهو في كل ذلك لا يشذ عن دلالات النصوص القرآنية الصريحة في هذا الموضوع ، الأمر الذي جعله يرفض الإسرائيليات وما تضمنته من خرافات ، ويرد على الشيخ رشيد رضى في فهمه «همت به وهم بها» بأنه الضرب ويخلص بعد بحث إلى أن ذلك هو في الحق يعبر عن موقف طويل من الإغراء خرج منه يوسف عليه السلام ناجيا منتصرا [٢] .

ويعلق سيد قطب في الهامش على رأي المعتزلة في هذا الموضوع ، وذلك فيما أورده الزمخشري في الكشاف ورفضه القول بالبرهان العقلي الذي نحا نحوه الزمخشري [٣] .

ومن هنا نعلم أن شهيدنا يحتاط كذلك من الوقوع فيما ذهب إليه المعتزلة في هذا المجال لكونه غريبا عن الحس الإسلامي وهو رد على من قال أن سيدا متأثر في بعض آرائه بالمعتزلة كما سيأتي في مكانه المناسب عما أثير من شبهات حول تفسيره .

---

(١) وردت القصة في سورة الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وانظر تفسير قصة آدم في المجلدات الآنية : المجلد ٣ ، ص ٤٧٣ ، وما بعدها والمجلد ٥ ، ص ١٩٩ ، وما بعدها و ص ٣٤٠ و ٣٩١ و ص ٤٩٩ .

(٢) المجلد ٤ ، ص ٧١٠ ـ ٧١٢ .

(٣) نفسه ، ص ٧١٢ .

ونلحظ في قصة أيوب عليه السلام أنه يرفض ما تبالغ فيه الروايات حين تصوره قد مرض مرضا منفرا حتى تحاشاه الناس ، ذلك أن مثل هذه المبالغات تتنافى والعصمة ، فلا يمكن أبدا أن يصبح نبي الله إنسانا تنحاماه العيون ويتجنبه قومه وهو الأسوة والقدوة .

مع العلم أن النبي معرض لما هو معرض له البشر ، ولكن لا لما يتعارض وجلال الرسالة ، ويعتمد سيد قطب في كل هذا على أن الروايات لا سند لها في ذلك وأن الدلالة القرآنية لا تزيد عن وصف حاله ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤] ، وفسره بما يشفي ويكفي [(١)] .

وذكر الله تعالى مرة أخرى قصة أيوب في صورة «ص» في قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١] ، ويشير كذلك سيد قطب في تفسيره إياها إلى قصة ابتلائه وما حام حولها من أساطير [(٢)] .

ونلحظ كذلك أنه يرفض رفضا باتا ما شابت التفاسير من إسرائيليات التي ذهبت إلى أن داود عليه السلام أعجب بامرأة فاحتال على زوجها حتى قتله ليتزوجها [(٣)] وما شئت من هذه الخرافات التي لا تليق بالصالحين من الناس فما بالك بنبي الله كداود عليه الصلاة والسلام يقول : «وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضا كبيرا تتنزه عنه طبيعة النبوة ، ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها حتى الروايات التي حاولت تحقيق تلك الأساطير سارت معها شوطا وهي لا

(١) انظر المجلد ٥ ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٢) انظر المجلد ٧ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) انظر الخازن «علي» لباب التأويل في معاني التنزيل ، ج٦ ، ص ٣٨ ـ ٤٢ .

تصلح للنظر من الأساس ولا تتفق مع قول الله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٢٥] (١) .

المعجزة :

وهي الأمر الخارق للعادة تجري على يد النبي عند تحدي المنكرين له على وجه يظهر به صدق دعواه .

وهذا الأمر الخارق للعادة يبده النفس ، لأنه مخالف المألوف ، ولكنه لا يخالف العقل والإمكان ، ذلك أن المعجزة كما قلنا خارقة من خوارق العادة لا تعني أن العقل يرفضها ، إذ استمرار الظواهر الكونية على نظام واحد ليس مما يحتمه العقل لكونه هو فقط مما عودتنا إياه العادة ، وتكون لدينا على مر الأيام بأثر الأسباب الجعلية .

وقد جهز الله تعالى أنبياءه ورسله بمعجزات تعزز صدق دعواتهم ، وتوضح طريقهم واتصالهم الحق بالله تعالى ، وتولى القرآن الكريم بسط الحديث عن هذه المعجزات من بينها معجزة موسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام ومعجزة سيدنا محمد ﷺ الخالد ألا وهي القرآن الكريم بجانب المعجزات الأخرى الصغيرة التي شهدها الناس في زمنها ، فكانت خارقة للعادة في وقتها .

ويعرض سيد قطب ~ تعالى من خلال تفسيره آيات النبوة المعجزات التي أيد بها رسله عرضا يتميز باستيحاء الدلالات من النص القرآني مفسرا ظاهرة المعجزة على أنها خارقة إلهية أرادها الله مبدع السنن الكونية ومدبر عجائب الآيات في الوجود ، وهو في تفسيره ذلك لظاهرة المعجزة يختلف اختلافا بينا مع مدرسة محمد عبده في موقفها من هذه الخوارق ، كما مر بنا قريبا ، بل إنه يرفضها ويعدها بعيدة

(١) انظر المجلد ٧ ، ص ٩٧ .

عن منهج التفكير الإسلامي الخالص [١] لأنها تستقي من أفكار الغرب .

مهما يكن ، فسيد قطب يعرض المعجزة على أنها خارقة ربانية ترتبط بالقدرة الإلهية الطليقة ، تلك القدرة التي لا تسأل كيف؟ نخلق النواميس ، وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة ، والمعلوم للبشر من النواميس قليل [٢] .

فهذه معجزة موسى عليه السلام وتتمثل في العصا وهي تنقلب حية تسعى ، ويضرب بها فينجس بضربتها الماء من الحجر الأصم وينفلق البحر ، وتتمثل معجزته أيضا في إخراجه يده السمراء من جيبه بيضاء من غير سوء ، ويعرض سيد ذلك كلما تكرر [٣] في القرآن لغرض خاص في جو خاص حسب طريقة القرآن في القصص دون أن يتعسف في تفسير المعجزة على عادة أصحاب النزعة العقلية في هذا الشأن الذين لا يقبلون الخوارق إلا بالتأويل المتعسف .

يقول سيد عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣] ، «ووقعت المعجزة وتحقق الذي يقول عنه الناس مستحيل ؛ لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور ، والله الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عند ما يريد » [٤] .

وهذه معجزة داود عليه السلام التي يقول عنها الله في القرآن الكريم : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٨، ١٩] ، والتي

(١) المجلد ٤ ، ص ١٩٥ بالهامش .

(٢) المجلد ٥ ، ص ٥٥٣ .

(٣) تكرر ذكر العصا في السورة الآتية البقرة ، الأعراف ، طه ، الشعراء ، النمل ، القصص ، وانظر تفسير ذلك في المجلدات الآتية : المجلد ١ ، ص ٩٥ والمجلد ٣ ، ص ٦٠٠ و ٦٥٣ ، والمجلد ٥ ، ص ٤٦٨ ، والمجلد ٦ ، ص ٢٠٧ وص ٢١٣ و ص٢٥٧ و ص٣٤٥ .

(٤) المجلد ٦ ، ص ٢١٣ .

هي تسخير الله له الجبال تسبح بالعشي والإشراق معه وذلك عندما يخلو لذكر ربه فيرتل في تمجيده أناشيده الجميلة والطير تنصت مأخوذة معجبة تردد معه نغماته ، وهذا بطبيعة الحال خبر مدهش يخالف مألوف الناس ، فهذا يقول سيد شارحا ذلك : «ولكن فيم الدهش؟ وفيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات ، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله أحيائه وأشيائه جميعا »[1] .

نزيد بجانب ما قاله سيد قطب بأن هذه الخارقة ليست غريبة إن نحن اطلعنا على ما في الكون من أسرار ، ذلك أن الكون كله يسبح بحمده ولكننا لا نفقه تسبيح هذه الأشياء التي حولنا وهو ما يوضحه الله تعالى في قوله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] .

ويشرح سيد قطب أمر هذه المعجزة شرحا شافيا حين يتعرض لتفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠] ، ويرى ــ وهو عين الصواب ـ أن الله تعالى أزاح الحجب بين داود وبين الأشياء[2] .

وهذه معجزة سليمان عليه السلام التي أكرمه الله بها وهي أنه علمه منطق الطير وأوتي من كل شيء يقول تعالى في سورة النمل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦] .

والطيور والحيوان والحشرات كلها لها لغات تتفاهم بها وصدق الله تعالى حين يقول : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] .

وقد منح الله سليمان هذه الخارقة لا على طريقة علماء الحيوان اليوم ، بل على

---

(١) انظر بقية التفسير في المجلد ٧ ، ص ٩٥ .

(٢) المجلد ٧ ، ص ٦٣٤ ، ٦٣٥ .

طريقة ربانية تخالف مألوف البشر [١] .

وفي هذا يقول ردا على التفسير التعسفي للمدرسة العقلية لمثل هذه الخارقة :

«وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل ، وإنه لأيسر شيء وأهون شيء على الله أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات هبة لدنية منه بلا محاولة ولا اجتهاد وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع ، وهو خالق هذه الأنواع » [٢] .

لم يكن لسليمان عليه السلام هذه المعجزة فقط بل إن الله تعالى أكرمه بمعجزة تسخير الريح له والشياطين تعمل له جنودا مجندة تحت إمرته قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء:٨١، ٨٢] .

وتدور حول سليمان عليه السلام روايات وتصورات وأقاويل ـ كما يقول سيد قطب [٣] وهو الحق ـ تستند فيما تستند على الإسرائيليات والأوهام ، ولكنه يرفض كل ذلك ويقف عند حدود النصوص القرآنية أو ما يمكن أن تمده به الأخبار الصحيحة .

وهذه معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام وهي ولاة من دون أب قال عنه جل وعلا : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩] هذه الولادة من غير أب ولا أم .

قال عنها سيد قطب : «عجيبة حقا بالقياس إلى مألوف البشر» [٤] ثم راح يعرض

---

(١) المجلد ٦ ، ص ٢٦٤ .

(٢) المجلد ٦ ، ص ٢٦٤ .

(٣) المجلد ٥ ، ص ٥٥٣ .

(٤) المجلد ١ ، ص ٥٩٨ .

بعد ذلك في سورة المائدة معجزات عيسى عليه السلام بالطريقة التي قدم بها المعجزات السابقات وبقوله : «ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله »[١] .

وتبقى معجزات سيدنا محمد ﷺ وعلى رأسها المعجزة الخالدة ألا وهي معجزة القرآن الكريم .

إن معجزة نبينا عليه الصلاة والسلام كثيرة من بينها تكثير الماء في غير ما مواطن ، ماء ظهر في البئر التي كانت بقباء من بركته ، تكثير الأطعمة للحاجة انشقاق القمر له[٢] .

وقد تحدث سيد قطب عن انشقاق القمر عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر:١] ، فتناول القضية بتفصيل واردا الروايات في ذلك مؤكدا أنها أخبار متواترة من طرق شتى ومؤكدا أن انشقاق القمر ثبت بالنص القرآني والروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته[٣] .

أما تناول سيد قطب لمعجزة القرآن الكريم فإن «الظلال» كله دراسة مستفيضة لهذه المعجزة الخالدة الفذة .

بإيجاز فيما يلي : إنه معجز في بنائه التعبيري ونسقه الفني بارتكازه على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت .

ومعجز في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها ، لا على فيه ولا مصادفة كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها

---

(١) المجلد ٣ ، ص ٧٠ .

(٢) انظر هذه المعجزات عند ابن كثير «اسماعيل» شمائل الرسول ، ص ١٧٦ و ١٩٢ ، تحقق مصطفى عبد الواحد .

(٣) المجلد ٧ ، ص ٦٤٣ ـ ٦٤٦ .

obeikandl.com

وتلبيها وتدفعها دون أن يحدث أي تصادم مع الفطرة الإنسانية [١] .

ب ـ آيات العالم الغيبي :

لقد شغلت آيات العالم الغيبي ساحة كبيرة في كتاب الله تعالى ، فتحدث عن إبليس والجان والملائكة والجنة النار ، ذلك أن العالم الغيبي يؤلف شطرا مهما من بديهيات عقيدة الإسلام .

إبليس :

ونبدأ بإبليس ، لعنه الله ، في الحديث عن مخلوقات العالم الغيبي ، فمن يكون هذا المخلوق؟ إنه مخلوق من مارج من نار لأنه من الجان ، وذلك بنص القرآن نفسه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ .

[الكهف:٥٠]

ويقطع سيد قطب بأن إبليس ليس من الملائكة لأنه لو كان من الملائكة لما عصى [٢] وصفة الملائكة أنهم : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤] ، ليس يعني الاستثناء فيه ـ كما يقول سيد [٣] : أنه من جنسهم ، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء كما نقول جاء بنو فلان إلا أحمد وليس منهم إنما هو عشيرهم .

ولو أن أستاذنا سيدا قال : إن الاستثناء هنا منقطع كما هو مقرر في النحو العربي ـ يعني أن لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه ـ لكان أحسن وإن كان قد أشار

---

(١) المجلد ٦ ، ص ١٩١ وما بعدها .

(٢) المجلد ١ ، ص ٧١٠ .

(٣) المجلد ١ ، ص ٧٠ .

إليه ، ولكن هذه الإشارة غير كافية ومشبعة ، ومثال هذا النوع من الاستثناء قولنا : «احترقت السفينة إلا الركاب» وحكمه النصب في الإيجاب والنفي [١] .

ومهمة إبليس الوسوسة وإلقاء الشر ، وقد تجلى ذلك أول ما تجلى في قصته مع أبي البشر [٢] واقتضت مشيئة الله تعالى أن ينظر إبليس إلى يوم يبعثون لحكمة أرادها فقال له : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر:٣٧، ٣٨] ، فكشف إبليس عن حقده الدفين فقال : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣] .

وبهذا تحدد منهج إبليس ـ كما يقول الشهيد ـ وتحدد طريقه ، لإغواء جميع الآدميين لأجل أن يعصوا الأوامر الإلهية إلا عباد الله الصالحين .

وفي هذه القضية الغيبية لا يذهب سيد قطب بعيدا عن حدود النصوص ، كما لا يذهب في غيرها بعيدا أيضا ، فهو يلتزم بمنهجه الذي صرح به بأنه التمسك بالنص القرآني والابتعاد عن تحميله ما لا يطيقه من تأويل .

الجان :

خلق الله الجان من مارج من نار كما في قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن:١٥] ، ومن نار السموم كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر:٢٦، ٢٧] ، وهذا غيب من غيب الله تعالى لا نعلمه إلا عن طريق الوحي ، وهنا يتصدى سيد قطب

---

(١) انظر : شرح قول ابن مالك : «اتباع ما اتصل وانصب ما انقطع» ، عند ابن عقيل «عبد الله» ، ج١ ، ص ٥٠٥ وما بعدها تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، ط ٩ ـ ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ ، ويجب التنبيه على أن هناك من عد التزيل وحقائق التأويل ج١ ص ٤٢ ـ دار إحياء الكتب العربية .

(٢) انظر : حديث سيد عن ذلك بتفصيل في المجلد ١ ، ص ٧٠ .

~ للذين يحاولون أن ينكروا هذه المخلوقات بحجة أن العلم لم يثبت وجودها فيرد بهتانهم بما أوتي من عارضة قوية في الإفحام والحجاج والإقناع وبسط الرأي وفهم جيد للنص القرآني المعجز .

وهذه المخلوقات ـ كما يقول الشهيد ـ [١] مزودة بالقدرة على الحياة في الأرض ثم في باطن الأرض وخارجها ، وتملك قوة سريعة لا يملكها البشر ، ومن هذه المخلوقات المؤمنون ، ومنهم الشياطين المتمردون وهم يرون البشر ولا يراهم البشر ، ومنهم ـ يعني الشياطين ـ المسلطون على الإنسان يغوونه ويوسوسون له بصورة لا نعلمها .

وهؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الصالحين ، وإذا قيست قوتهم بقوة الملائكة فإنهم يبدون خلقا عاجزين .

والجان سيحشر ويحاسب ويعاقب ويجازي بالجنة أو النار كالإنسان ، فمن يؤمن بربه منهم فلا يخاف بخسا ولا رهقا .

أما عن سلطة الجان في الأرض فإنه من أوهام الناس وأساطير ورثها البشر عن الجاهلية ولا تزال تعيش في مجتمعات كثيرة إلى اليوم ، وقد كان العربي إذا نزل بواد استعاذ بحاكم الجن ، ونام مطمئنا كما كان يعتقد أن الجان يعلم الغيب ، وغير ذلك من الشركيات التي لا يزال صور منها في مجتمعاتنا ولا من يتصدى لها من المسؤولين ، أما العلماء غير الرسميين خاصة السنيين منهم فإنه لا يألون جهدا في هذا الميدان .

وأما عن السحر فلسيد قطب موقف معتدل فهو لا يسلم بالخرافة ولا يصدق ، ولكنه لا ينفي ولا يثبت ما يتصل ببعض المسائل المجهولة كالتنويم المغناطيسي وغيره ، وكل ذلك لا يقع إلا بإذن الله تعالى [٢] .

---

(١) انظر : حديثه المفصل عن ذلك في المجلد ٣ ، ص ٣٥٧ .

(٢) المجلد ١ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ .

الملائكة :

عالم لطيف غيبي أبدعه الله من النور ، روى مسلم عن السيدة عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «**خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم** » .

والملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون ، وهم مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم به الله [١] .

ويجدر أن نشير إلى أن الشيخ محمدا عبده ومن ترسم مدرسته العقلية في التفسير ـ وقد ألمعنا إلى ذلك سابقا ـ لم يكن ينظر إلى الجان والملائكة نظرة النصوص القرآنية الصريحة ، إذ فسر هذا العالم الغيبي تفسيرا عقليا متعسفا ، من ذلك أنه ذهب إلى أن الجان مكروب خفي ، والملائكة قوى ترشد إلى الخير وتهتف به في النفس ، وهو ما أشار إليه سيد قطب في معرض حديثه عن سورة الجان ولم يسم واكتفى بنقد من زعم ذلك [٢] ، وفي موضع آخر تعرض للشيخ محمد عبده وانتقد عليه حين تصدى لتفسير سورة الفيل ما ذهب إليه من تأويل شاذ لمعجزة طير الأبابيل [٣] .

وهذا ما حفز سيد قطب إلى أن يرسم الطريق الأمثل للذين يريدون تفسير القرآن وفهمه على حقيقته ، وعلى وفق التصور الإسلامي الحق يقول : «إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره وفي التصور الإسلامي وتكوينه أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصويرية أو عقلية أو شعورية سابقة وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود ، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن ولا ينفي شيئا يثبته القرآن

(١) المجلد ٨ ، ص ٣٦٥ .

(٢) نفسه ، ص ٣٢٥ .

(٣) المجلد ٨ ، ص ٦٧٠ .

ولا يؤوله ، ولا يثبت شيئا ينفيه القرآن أو يسلطه ، وماعدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته [١] .

ومن الغريب والمضحك حقا في وقت واحد بعد كل هذا أن يدرج الشيخ الزمزمي بن الصديق ~ في كتابه «الطوائف الموجودة في هذا الوقت» [٢] سيد قطب ضمن الطوائف الضالة فيحشره مع الشيخ محمد عبده والمراغي من أصحاب المدرسة العقلية في التفسير بتهمة غير واقعة قطعا وهي أنه من الذين يؤولون الآيات المخبرة بالمعجزة تأويلا باطلا .

ويبدو لي أن الشيخ الزمزمي ما قرأ «الظلال» ، ولو قرأه ما أطلق هذا الحكم الجائر ، وآية ذلك أن «الظلال» في أكثر من موضع يفند تأويل المتأولين تارة بالإشارة وتارة بالتصريح ، وقد سبق الاستدلال على ذلك غير ما مرة ، وهكذا انقلبت صورة المفسر ذي النزعة السلفية ــ في تقدير من لم يوثق معلوماته ــ إلى صورة المفسر المبتدع خاصة في هذه القضية ، مع أننا لا نبرئ سيدا من الأخطاء ككل البشر وهو نفسه يعترف ـ وهذا إنصاف منه قل من يتصف به اليوم ـ بأنه وقع تحت تأثير تصورات غربية وأخذ يتخلص منه شيئا فشيئا [٣] .

الجنة والنار :

الجنة تعني في أصلها البستان من النخل أو الشجر وهي مشتقة من فعل «جن» إذا ستر ، وسبب تسميتها بذلك أن أشجارها الوريقات تتشابك فيما بينها فتكون ظلالا تستر ما تحتها .

والجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين وقد سماها عدة أسماء منها : دار

---

(١) نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٢) انظر ، ص ٢٢٦ .

(٣) المجلد السابق ، ص ٢٢٦ بالهامش .

السلام ، دار المقامة .

والنار هي دار العذاب أعدها الله تبارك وتعالى للفجار وسماها عدة أسماء سماها : الهاوية ، والجحيم ، والسعير ، واللظى ، وسقر ، والحطمة .

وقد اعتنى القرآن الكريم عناية خاصة بمشاهد النعيم والعذاب ، إذ قدم للإنسان الوصف الحقيقي لهذا العالم الغيبي ، وأضفى عليه صورة متحركة حية ، الأمر الذي يجعل المسلم يعاين الجنة بروحها وريحانها ، والنار بلفحها وشواظها ، لذلك تميزت مشاهد هذه الموضوعات بحضورها الحي وكأن العين تراها ، وكأن النفس تحسها ، وكأن الآخرة هي الحاضرة ، والدنيا عالم من الذكريات ليس غير .

ويهتم القرآن الكريم بالحديث كذلك عن النعيم والعذاب بالمشاهد المادية الملموسة ، وتارة بالمشاهد المعنوية ، وتارة يجمع بين هذا وذلك .

ونعرض مثالا من مشاهد الجنة والنار في القرآن مفسرة بقلم سيد قطب يبين لنا جانبا من طريقة القرآن في الحديث عن الجنة والنار ، وطريقة تناول سيد قطب لهذا الجانب ، يقول في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] .

إن هذه الصور الحسية من النعيم والعذاب ترد في مواضع من القرآن ، وقد تجيء معها صور معنوية أو تجيء مجردة ، كما أن صور النعيم والعذاب المجردة عن الحسيات تجيء في مواضع أخرى ، والله الذي خلق البشر أعلم بمن خلق وأعرف بما يؤثر في قلوبهم ، وما يصلح لتربيتهم ثم ما صلح لنعيمهم ولعذابهم [(١)] .

ونلحظ من خلال هذا النموذج من التحليل الجيد أن سيد قطب لم يتطرف في تفسير النعيم الذي زخرت جنة الخلد والعذاب الذي حفلت به جهنم كما فعل

(١) راجع بقية التفسير في المجلد ٧ ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

البعض ، فأول النعيم والعذاب تأويلا ترفضه الدلالة القرآنية ، إذ جعلوا من كل هذه المشاهد الحسية رموزا ليس إلا لأجل الإغراء والإرهاب ، بل نجده يفسر الصورة الحسية للنعيم والعذاب والمعنوية بأنها جاءت لتوافق أشتاتا من أضعاف البشر تختلف ، وتتنوع منها ما ينفع معها المشهد الحسي ، ومنها ما ينفع معها المشهد غير الحسي ، والله الذي خلق البشر هو أعلم بما خلق ، وأعلم بما يؤثر في نفوسهم .

جـ ـ الآيات العلمية :

تشغل الآيات العلمية في القرآن الكريم حيزا ذا بال ، وإننا سوف لا نستطيع أن نستقصي كل الآيات التي تعرض لها سيد قطب بالتفسير والبيان ، فسنكتفي فقط بعرض نماذج من تفسيره تبرز لنا مواقفه مما تضمنته الآيات التي احتوت تلميحات عن القضايا العلمية ، وسنعزز ذلك ، كما هو شأننا ، بشواهد من كلامه يبين رأيه الصريح في هذا الموضوع .

التفسير العلمي للقرآن :

لم يكن الشهيد من الذين يحبذون تفسير كلام الله تعالى في ضوء المعطيات العلمية الحديثة ، وإقحامه في هذه المباحث إقحاما ، بل كان يرفض هذا الضرب من التفسير ، ويراه اجتراء على النص القرآني بتحميله ما لا يحتمله من تأويل في مجال ينبغي ألا يخوض معتركه بالشكل الذي يريده له أولئك ، لكون هذا المجال تتجدد فيه الآراء والنظريات بحسب تجدد البحوث العلمية ، فما كان مسلما أمس قد يصبح اليوم محظورا وهكذا .

ولاشك أن هذا يعرض القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه للتشكيك ، ويمهد السبيل لمن في قلبه مرض أن يتقول على كتاب الله تعالى ، ويثير حوله زوبعة من الشكوك لينفذ بسهولة إلى الطعن في وثاقته وصحته .

بجانب ذلك فإن القرآن الكريم ليس كتاب علوم أو رياضيات أو هندسة أو

طب أو فلك أو كيمياء أو فيزياء حتى نعرض عليه أحدث النظريات العلمية ، وإنما هو أولا وقبل كل شيء كتاب تشريع وهداية يكفل للإنسان سعادة الدارين ، وما جاء فيه من ذكر شتى المعارف إن هو إلا تلميح لحفز الهمم إلى الاجتهاد ، والنظر فيما خلقه الله من عجائب ، وإخصاب روح البحث والنظر في الإنسان ليرتاد عالم المعرفة والعلم .

ومع كل ذلك ، فسيد قطب لا يرفض البتة الاستدلال بالنظريات العلمية ، وهو في هذا ينصح بألا نغرق في الانسياق وراء النظريات ، فننسى بذلك ما يوحي به النص القرآني من تلميحات عن القضية العلمية والغاية منها .

وقد نبه الشهيد وحذر من السقوط في هذه المحاذر غير ما مرة في «الظلال» [(١)] كلما استدعت الضرورة من ذلك قوله في تفسير الآية الكريمة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . [الأنبياء:٣٠]

«إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علما تجريبيا كذلك ، إنما هو منهج للحياة كلها» [(٢)] .

ولا يكتفي سيد قطب بالتنبيه والتحذير ، وإنما يستشهد ببعض الأمثلة التي تسوغ مقالات البعض في تحميل النص القرآني ما لا يحتمله من ذلك قوله معلقا في الهامش على تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ ﴾ [الرعد:٤١] .

وهذا هو المعنى المتعين لهذا النص لا ما يخبط فيه دعاة التفسير العلمي للقرآن من دلالة هذه الآية على نقص أطراف الأرض عند القطبين وانبعاجها عند خط

(١) انظر : مثلا المجلد ٥ ، ص ١٠٢ و ١٩٨ ، والمجلد ٦ ص ١٥ .

(٢) انظر : بتفصيل ، المجلد ٥ ، ص ٥٣٠ ، ٥٣١ .

الاستواء إلى آخر هذا الهراء ، إن السياق القرآني يحدد مدلول العبارات فيه ، فليتق الله من يخبطون في هذا المجال دون فقه وبصيرة بطليعة القرآن » [١] .

وليس سيد قطب بدعا بين علمائنا في رفضه التفسير العلمي بالصورة التعسفية ، وقد سبق لنا أن ذكرنا بعض الذين رفضوا هذا اللون من التفسير في الفصل الأول الباب الأول من هذا القسم ونذكر من بين من لم نذكر سالفا هذا الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد [٢] .

وبعد ، فإن سيد قطب ~ تعالى وقف موقف التبصر والتدبر ؛ إذ إنه لا يضحي أبدا بما يوحي به النص القرآني ، ولا يزج به في متاهات تفقده دلالته ، بل لا يتجرأ على تخطي ما يشع به . ومع هذا فهو لا يهمل الاستدلال بالنظرية العلمية ، ولكن لا يقحمها إقحاما [٣] .

*****

(١) المجلد ٥ ، ص ١٠٢ بالهامش .

(٢) انظر : كتابه الفلسفة القرآنية ، فصل تفسير القرآن في العصر الحديث ، ص ٢٠٦ ، سلسلة كتاب الهلال .

(٣) انظر : مثلا المجلد ٧ ، ص ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

obeikandl.com